دلالة حرفي العطف (الفاء وثُمَّ) في سياق الأفعال المقترنة بذكر الأرض في القرآن الكريم

أ.م. د. نافع علوان بُهلول الجبوري
كلية التربية للعلوم الإنسانية/ قسم اللغة العربية

المقدمة

الحمد لله الذي هيَّأ لعباده سُبُلَ الرشاد وسُنَنَ الهُدى، فاستقبلوا فيض هداه، وأنزل على بصائرهم من أنوار بيانه ما يُجلِّي لهم به حقائق تنزيله، فأفاض على عقولهم من حكمته ما تتكشَّف دونه أسرار نظمه، وأَنعم عليهم بمحاسن خطابه فمسَّ أَذواقهم بعذب كلامه، فظهرتْ لطائفه وعجائبه، ووهبهم من إعجاز الفهم ما يشهد بإعجاز النظم.

أَمَّا بعدُ..

فلم يُغفِل علماء العربية المكانة السامية للأدوات والحروف في لغتهم الغراء، فقد أولوها عناية كبيرة بإحصائها ووضع كل حرف بإزاء دلالته الخاصة، مراعين بذلك قضية الفروق الدلالية للحروف والأدوات، والتي تُسهِم في إيضاح أوجه الشبه والاختلاف بين هذه الأدوات في النظم القرآني.

وحروف العطف من حروف المعاني التي تأخذ على عاتقها ربط الكلام؛ لتتَّسِق الألفاظ والمعاني وفق نظام عجيب، يدعو إلى التوقف عندها طويلًا وبتدبُّر؛ لتبصر ما تُشِعُّه هذه الحروف على النص القرآنيّ فيتَّضِح المراد من الخطاب.

فالخصائص الأسلوبية للقرآن تكفلتْ برفد اللغة العربية بغِنًى ودقة أَلحَّتْ على أهل الفصاحة من العرب الأقحاح أَنْ يُذعنوا له مُطأطِئي رؤوسهم بذُهل وإقرار تامَّين.

بيدَ أَنَّ عملنا هذا عُنِي بالتنقيب عن دلالة حرفين من حروف العطف وهما: (الفاء وثُمَّ) فهذان الحرفان يعملان بفاعلية كبيرة في النص القرآني، وهما يتقابلان في المعنى الدقيق لكل منهما فأحدهما للتعقيب والآخر للمهلة، ولا يخفى ما بين المعنيين من التخالف والافتراق، فضلًا عمَّا يظهر من تعاورهما فيما يبدو للناظر من بعض النصوص، وهي مواطن دقيقة مُحوِجة إلى وقفات طويلة مع النصوص ليظهر الفرق بينهما، فربَّما كان للغرض من الكلام أو السياق الأثر البالغ في كشف الغاية من استعمال كلٍّ منهما في موضعه المناسب.

فهذان الحرفان يُبرزان سر الجمال والجلال في النظم القرآني بأسلوب يُفضِي إلى فهم النصوص الكريمة، بل والتعايش معها وكأَنَّ أحداثها مُشاهَدَة تجري أمام أنظارنا الآن، وفي ذلك دلالة على حُسن اختيار القرآن لأَدواته كلٌّ في موضعه اللائق به من غير تطويل مُمِلٍّ ولا تقصير مُخِلٍّ.

ولذلك كان اختيارنا لعنوان: دلالة حرفي العطف (الفاء وثُمَّ) في سياق الأفعال المقترنة بذكر الأرض في القرآن الكريم.

وقد دفعتني إلى هذا العمل أسباب منها:

خدمةً للقرآن الكريم الذي تكفَّل الله – بحفظه على مرِّ العصور والأزمان، فقال تعالى: ﴿ٱنَّا • • • • • • • • ﴾ الحجر: ٩

1. وأمرنا – بأَنْ نتدبَّرَ آياته ففيها المنجاة والإعجاز، فقال–:

﴿ ﴾ : ٢٩.

2. خدمةً للغة العربية التي حباها الله وكتب لها أَنْ تكونَ رافعةً للواء البيان والإعجاز؛ بما أودع فيها من أسرار، وبما أكسبها من أساليب خاصة، ومصطلحات جديدة، زادت من ثراء هذه اللغة العظيمة فجعلها تسمو على لغات العالم.
3. رغبةً في البحث والغوص إلى أعماق النص القرآني؛ للإجابة عن كثير من التساؤلات التي نحتاجها في أثناء قراءتنا للقرآن الكريم؛ لنترجمها في حياتنا اليومية.

وقد اشتمل هذا البحث في محتواه العلمي على التقسيم الآتي:

- مقدمة:
- المبحث الأول: دلالة حرف العطف (الفاء): دلالته على طيِّ الزمن، وتناولنا فيه كيفية تحريكه للأحداث بسرعة فائقة داخل سياق الأفعال المقترنة بذكر الأرض.
- المبحث الثاني: دلالة حرف العطف (ثُمَّ): دلالته على تصوير الإحساس بالزمن، وكان حديثنا فيه عن فاعلية هذا الحرف وهو يُبطِئُ بالأحداث داخل سياق هذه الأفعال، فيُحدِث شعورًا ثقيلًا بتطاولها.
- المبحث الثالث: تباين دلالة حرفي العطف (الفاءُ وثُمَّ)، وكان في أمرين:

1. التناسب بين بنية حرف العطف ومعناه.
2. دلالة المغايرة بين حرفي العطف (الفاء وثُمَّ) في المواقع المتشابهة.

- الخاتمة: وهي تشتمل على نتائج البحث.

وأَخيرًا فإِنَّ هذا العملَ المتواضع ما هو إِلَّا جُهد المُقِلّ، فلا أَدَّعي فيه كمالًا فالكمال لله وحده، والعصمة لِرسوله . واللهَ أَسألُ أَنْ ينالَ القبول والرِّضا. وآخر دعوانا أَن الحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله وسلَّم وبارك على نبيِّه الأمين وآله وأَصحابه الغُرِّ الميامين.

المبحث الأول: دلالة حرف العطف (الفاء)

دلالته على طيّ الزمن

من المعاني التي اختصَّتْ بها الفاء معنى التعقيب، وهو وقوع المعطوف بعد المعطوف عليه بلا فاصل زمني. فإذا قلت: قام عليٌّ فخالدٌ، دلَّتْ على أَنَّ قيام خالد بعد عليٍّ، بلا مهلة[1].

وهذا التعقيب لازم في الفاء، وبه يتعلق الغرض من الكلام، ولكنْ كل تعقيب بحسبه في الكلام[2]، وهو مرتبط بدواعي الأحوال ومقتضيات السياق.

فاستعمال هذا الحرف له دلالات تُسهم في كشف المقاصد والأغراض من الكلام، ومنها أَنَّها تُصيِّر الميت حيًّا، والمُجدب مخضرًّا بسحر عجيب وسرعة متناهية. وقد قال في وصفها محمد الأمين الخضري: " إِنَّك لتُدهَش من هذه الفاء، وهي تطوي الزمن فتُريك من آيات الله عجبًا، تنشر الحياة بسرعة لا تكاد العين تُلاحقها في موضع، وتقلب الأخضر يابسًا، والحيَّ ميتًا، قبل أَنْ يرتدَّ إِليك طرفك في موضع آخر "[3].

ومن الشواهد الدالة على فاعلية حرف العطف الفاء في النصوص الكريمة الواردة في سياق الأفعال المقترنة بذكر الأرض قوله ٹﭐﭑﭒ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ • ﮡ • ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ • • • • • • • • • • ﭼ

الكهف: ٤٥

فالسياق في مقام يُزهِّد فيه الله من التشبث بالحياة والاغترار بزهرتها والانكباب عليها، "وَالْحَيَاةُ الدُّنْيَا: تُطْلَقُ عَلَى مُدَّةِ بَقَاءِ الْأَنْوَاعِ الْحَيَّةِ عَلَى الْأَرْضِ وَبَقَاءِ الْأَرْضِ عَلَى حَالَتِهَا. فَإِطْلَاقُ اسْمِ الْحَياةِ الدُّنْيا عَلَى تِلْكَ الْمُدَّةِ لِأَنَّهَا مُدَّةُ الْحَيَاةِ النَّاقِصَةِ غَيْرِ الْأَبَدِيَّةِ لِأَنَّهَا مُقَدَّرٌ زَوَالُهَا، فَهِيَ دُنْيَا، وَوَصْفُهَا بِـ (الدُّنْيَا) بِمَعْنَى الْقَرِيبَةِ، أَيِ الْحَاضِرَة غير المنتظرة، كَنَّى عَنِ الْحُضُورِ بِالْقُرْبِ"[4]. وهو يُركِّز في سرعة الفناء لِئَلَّا تتعلق النفوس بهذه الحياة الزائلة، فسرعة زوالها كسرعة زوال نبات الأرض بعدما نزل عليه الماء واهتشَّ ثُمَّ تحول إلى هشيم تلعب به الرياح، وتحركه كيفما شاءتْ، وهذه أَحداث أسرعتْ بها الفاء في النظم الكريم لِتُلائم سرعة انقضاء هذه الحياة، فقد تعانق المقام والمقال في إيضاح الغرض من الخطاب.

فكشفَت (الفاء) العاطفة بأَنَّ نعيم الدنيا ضئيل إذاما قِيسَ بما أعدَّه الله . للطائعين من النعيم المقيم، فالدنيا ليستْ تستحق هذا الاغترار، وشِدَّة التكالب عليها؛ لكونها دارًا زائلة، فزهرتها لا تدوم أكثرَ من دوام نبات لم يكد يُزهر حتى أتى عليه الجفاف واليُبس والذبول، وأخذت الرياح تحركه في كل اتجاه.

فطَيُّ الزمن وقع في موطنين من الآية الكريمة: في اختلاط النبات بسرعة بسبب الماء، وفي تصييره هشيمًا متكسِّرًا بسرعة عجيبة. فالمُدَّة لم تطُل بين نزول الماء وبين اختلاط النبات وبين تصيير النبات هشيمًا فانيًا تتلاعب به الرياح وتذروه في كل اتجاه.

فالمقام مقام تقليل لشأن الدنيا وسرعة تقضِّيها، آزرته الفاء بطيِّها للزمن وتقصيرها للحكاية، فهي تطوي من الزمن ما يُثقِل حركة الأحداث[5]. فناسب المقال المقام.

وفي وزن فعل (فاختلط) ما يُسهِم بتعزيز الموقف وشِدَّة التفاعل مع الأحداث فهو على وزن (افتعل) الدال على المفاعلة فهو تداخل واختلاط سريع بين أجزاء النبات فهو متشابك ومُسَبَّب عن الماء، فالباء باء السببية والضمير عائد على الماء[6].

ومن الشواهد الواقعة في ضمن موضوع دراستنا قول الله ٹٱٻٱ • خم • • • سم • • • • • • • • • • • ّ الحج: ٦٣فبعض النحاة يرى أَنَّ الفاء في الآية بمعنى (ثُمَّ)؛ لأَنَّ الاخضرار يتأخر زمنًا بعد نزول المطر[7]. وهو بعيدٌ عن سماء الفصاحة، فالتعقيب في غاية الوضوح كشف ذلك المقام والملابسات والمقال.

أوحَت الفاء بطَيِّ الزمن بين خضرة الأرض وإنزال الماء؛ وذلك أَنَّ يدَ القدرة الإلهية قد مسَّت هذه الفاء فانمحى معها الزمن، فأصبح الزمن بين أفعال الله معدومَ الأثر، فلا شيءَ يخرج على قضاء الله وقدره، وعلى الوجه الذي يُريده الله ففي ذلك إبراز لتحقق الوقوع[8].

بيدَ أَنَّ هذا الموضع لطيف عجيب لحرف العطف الفاء في النظم المُعجِز، فالمقام مقام تعدادٍ لنِعَمِ الله . على خلقه، ففيه توجيه للخلق بعقولهم وقلوبهم إلى المُنعِم الوهَّاب في سرعة متناهية.

وفي اللون الأخضر دلالة على إمتاع الأبصار، وهو يُوافق مقام الشكر، ففيه إيجاب لشكر نِعَمِ الله .. وفي استعمال لفظ (تُصبِح) دلالة على تجدد النعم فدلالة (أصبح) التوقيت في الصباح، والصباح مدعاة للسرور وراحة للنفوس وهي ترى الأرض مخضرة زاهية، وما أجملَ نزول المطر، وخضرة الأرض في وقت الصباح!. وفي كونه مضارعًا دلالة على استمرار هذا الاخضرار أزمانًا. قال

الطاهر بن عاشور(1393هـ): " وَإِنَّمَا عَبَّرَ عَنْ مَصِيرِ الْأَرْضِ خَضْرَاءَ بِصِيغَةِ تُصْبِحُ مُخْضَرَّةً مَعَ أَنَّ ذَلِكَ مُفَرَّعٌ عَلَى فِعْلِ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً الَّذِي هُوَ بِصِيغَةِ الْمَاضِي لِأَنَّهُ قَصَدَ مِنَ الْمُضَارِعِ اسْتِحْضَارَ تِلْكَ الصُّورَةِ الْعَجِيبَةِ الْحَسَنَةِ، وَلِإِفَادَةِ بَقَاءِ أَثَرِ إِنْزَالِ الْمَطَرِ زَمَانًا بَعْدَ زَمَان"[9].

وممَّا يُؤكِّد حقيقة هذه النعمة الاستفهام المفيد للتحقيق والتقرير، في قوله: چ ۋ ۋ چ، فهو بمعنى: قد رأيتَ، فكأَنَّ الأمر مشاهَد رأي العين، فالخطاب لكل مَنْ تصلح منه الرؤية؛ لكون المرئي مشهورًا[10].

ومن الشواهد الواقعة في ضمن موضوع بحثنا قول الله ﷻ • لخ لم لى لي • • • • • • • • • • نم نى ّ المؤمنون: ١٨، قال البيضاوي(685هـ): " فَأَسْكَنَّاهُ فجعلناه ثابتاً مستقراً. فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلى ذَهابٍ بِهِ على إزالته بالإفساد أو التصعيد أو التعميق بحيث يتعذر استنباطه. لَقادِرُونَ كما كُنَّا قادرين على إنزاله، وفي تنكير ذَهابٍ إيماءٌ إلى كثرة طرقه ومبالغة في الإيعاد به"[11]. واستعمال حرف التعقيب في هذا الموضع له دلالة خاصة جعلته مختارًا في الآية الكريمة، فالغرض في النص هو حفظ الماء في أعماق الأرض، بجعل الأرض كالخزان الذي يحتفظ بالماء ليستخدمه الإنسان وقت الحاجة، فهو كالمخزون الاحتياطي في الأرض، ولمَّا كان هذا الأمر متطلبًا لسرعة وصوله إلى أعماق الأرض لِئَلَّا يتبخر بفعل الحرارة وأشعة الشمس اقتضى ذلك استعمال حرف التعقيب الموافق لسرعة وصوله إلى مستقره ومستودعه، ومِمَّا يُعزز ذلك التعبير بالفعل (أسكن) الدال على الاستقرار، فلو استعمل حرف العطف (ثُمَّ) لضاع الغرض إذ هي تُفيد إطالة زمن بقاء الماء على ظهر الأرض مدة أطول فيكون عاملًا في ضياعه بالتبخر، فيكون في ذلك بُعدًا عمَّا أراده النظم من التنبيه على

رحمة الله بحفظ ما أنزله من السماء؛ لينتفع به الخلق وقت الحاجة، والقرينة على المراد هو ختام الآية بقوله: ﭽ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭼ المؤمنون: ١٨، فالمراد حفظ الماء للنفع(12). وفي ذلك تصوير بالإحساس بطَيِّ الزمن بسرعة من خلال حرف التعقيب.

المبحث الثاني: دلالة حرف العطف (ثُمَّ)

دلالته على تصوير الإحساس بالزمن

لهذا الحرف الرابط قدرة على تصوير أحوال النفوس وتجسيد المشاعر والانفعالات، من خلال تحريك زمن الأحداث وقبضه وبسطه، ومن هنا تأتي دقة علماءنا بأَنَّه حرف يدل على التراخي والمهلة، وهو لاشكَّ وصف دقيق ينمُّ عن استقراء عجيب لهذه اللغة الشاعرة التي ابتُنيتْ على أغراض ومقاصد، وما حباها الله – من مفاتن تسحر الأسماع والعقول، فتبوَّأَتْ بذلك منزلة جعلتها أهلًا لأَنْ تكونَ لغة القرآن الكريم.

والقرآن هو الميدان الرحب الذي اختبأَ أسرار اللغة فأعجز بنظمه أهل الفصاحة في عصر الفصاحة، وبهر عقولهم بحقائق وأدلة دامغة على أَنَّه كلام الله – الذي ﭑﭒﭓﭔ • • • • • • • • • • • • ﯽ ﯾ • ّ

فصلت: ٤٢وحرف العطف (ثُمَّ) يحمل معنى الحركة والتتابع وهو يرسم الأحداث بتسلسل وترتيب مراعًا فيه إحساسات المخاطَبين بتجسيد المشاهد بدقة عالية حتى لكأَنَّنا نراها رأيَ العين.

فلنتأمل حرف التراخي هذا في تصويره ثِقَلَ الزمن وشِدَّة حركته على نفوس المسلمين في غزوة حنين إثرَ الهزيمة المباغتة التي مُنوا بها، فأصابهم نتيجتها

الذهول والدهشة والحيرة كما أظهره قول الله –: ﭐﱡﭐ ﱢ ﱣ • • ﱤ • • •
ﱥ • • • • • • • ﱦ ﱧ ﱨ ﱩ ﱪ ﱫ ﱬ ﱭ ﱮ ﱯ ﱰ ﱱ
• ﱲ • ﱳ • ﱴ • • • ﱵ • • • • • • • • •
ﱠ التوبة: ٢٥ - ٢٦

فلحظات الهزيمة كانت سريعة ولكنَّها قصيرة في عمر الزمن؛ بما فوجئوا به من مباغتة العدو لهم، لكنَّ (ثُمَّ) كشفتْ عن ثِقَلِ الحالة النفسية التي أصابت المسلمين، وجسدت حيرتهم وارتباكهم، فهذا الحرف فيه مهلة وتراخٍ في تصوير الشلل الذي أصاب عقولهم وأفكارهم، ما أعجزهم عن سرعة الحركة التي تُمكِّنهم من تدارك الأمر ، واستيعاب الحدث[13].

وانظر إلى سحر الكناية الذي وافق شِدَّة الثِّقَل والضيق الذي حلَّ بالمسلمين وذلك في قوله: فهذه الأرض الواسعة صارت كأنَّها ثقب إبرة؛ لضيق نفوسهم فهم مجتمعون عليه ليلجوا من خلاله، وهو تصوير يُبهر السامع، بل هي حقيقة كأنَّنا نراها رأي العين. وقد تعزز هذا الجو المشحون بمعاناة تُظهرها دلالة الفعل المركزية على كون الضيق "خِلَافَ السَّعَة"[14]، فهذ الضيق يوافق الضيق الحاصل في القلوب من صدمة الهزيمة، فالمشهد في غاية الضيق دل عليه سياقا الحال والمقال. والحرف (ثُمَّ) يُعزز هذا الضيق بما عكسه من تراخٍ في صفحة الزمن.

والسياق يرسم هول الموقف؛ بتتابع تَتَواءَم فيه الألفاظ والمعاني، وبدقة استعماله لأدوات الربط كلٌّ في موضعه اللائق به، وكأَنَّ السامع للآيات يُحِس نفسه في أرض المعركة؛ بالتفاعل مع أجزاء الكلام كلما طرقت هذه الآيات أسماعه. ومن هذه الأدوات التي أسهمتْ في هول الموقف حرف الجر (على) الذي يُوحي

باستعلاء الضيق وتمكُّنه من نفوس المسلمين؛ لِئَلَّا يغتروا بكثرتهم، وأَنْ لا تبرح أذهانهم حقيقة أَنَّ النصر من عند الله – وحده.

ومن الروابط التي زادت التعبير قوةً استعمال الضمير (كم)؛ للتركيز على أَنَّ المقصود بالخطاب هو أنتم أيها المسلمون المغترون بكثرتكم دون غيركم؛ فاستلزم التعبير استعمال ضمير الخطاب الدال على القرب. ومن الثابت أَنَّ ضمير الخطاب يختصر مرحلة من مراحل العلاقة بين الدال والمدلول[15].

وبعد كل هذا تعاود (ثُمَّ) الظهور في السياق نفسه من قوله –:چۆ ۆ ۈ ۈچ، وهي إشارة إلى عِظَم المصيبة وشِدَّتها على النفوس، فحرف العطف يُصور طول الزمن وبُطأَه ما بين توليهم مدبرين، وإنزال الله – سكينته عليهم ببطء شديد؛ إذ الهزيمة تمكنت من نفوسهم، والألم يعتصر قلوبهم؛ فهو ضغط مضاعف، والذي ضاعفه أكثر أَنَّ هزيمتهم كانت عن كثرة لا قلة، وفي ذلك إيحاء بالعقاب، وقسوة في التربية والتأديب، فكل ذلك الزمن المتراخي الطويل الذي عاشه المسلمون أوحى به حرف التراخي.

فهو إحساس شديد بالزمن بكل ساعاته ودقائقه، وبكل جزئياته ويالها من لحظات انكسار!، تبعث الخوف الشديد والقلق في نفس قارئ هذه الآيات العظيمة التي كشفت عن حال المسلمين في ساحة المعركة آنذاك، فضلًا عمن عاش ساعاتها، وواكب مجريات أحداثها.

وبعد إحدى وتسعين آية من السورة نفسها يظهر موقف الضيق هذا في سياق مشابه لهذا السياق، يحمل دلالات تربوية عظيمة القدر، وذلك في قوله تعالىڭﭑﭒﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ • • • • •   • • • • ﭘ ﭙ •

• •   • • • • • ﭚ ﭛ • • • • ٌ ٍ َ ُ ً التوبة: ١١٨

فحرف العطف (ثُمَّ) يظهر من جديد في سياق مشابه؛ ليُصور البَون الواسع بين الضيق الذي يُكابده أولئك النفر الثلاثة – الذين صدقوا في إيمانهم، ولكنَّهم انتابهم الضعف البشري في لحظة من لحظاته؛ بتخلفهم عن رسول الله دون عذر في غزوة تبوك– وبين توبة الله – عليهم.

فهي تصور حالة الإنسان الذي أطبق عليه الهمُّ من كل مكان؛ بما عانوه من العزلة والإبعاد، وقد مُنِعَ المسلمون عن مخاطبتهم– تربية للمجتمع المسلم–، فأَيُّ حسرة يُكابدها أولئك الثلاثة؟؛ من مقاطعة المجتمع لهم، واعتزال أهلهم عنهم، ومنع التحدث إليهم والسلام عليهم. فحرف التراخي يُصور لنا حجم التربية والتهذيب لنفوس المسلمين.

فأولئك النفر يعيشون هذه الحالة الصعبة ببطء شديد ثقيل على أنفسهم؛ إذ لكأَنَّ الزمن يتطاول ويتطاول فالثواني كأَنَّها ساعات، والساعات كأَنَّها ليالٍ، والليالي كأَنَّها أعوامٌ. كل ذلك الموقف المحزن الطويل، يُجلِّيه حرف العطف بعناية فائقة وبتراخٍ شديد الوقع على النفوس؛ فالتوبة تأخَّرتْ عنهم في سياق النص، فزمن العقاب قد طال، ومرارة الانتظار الطويل تغصُّ به حلوقهم(16).

وممَّا يُقوي عمق المعاناة النفسية، وشِدَّة العزلة، استعمال ضمير الغيبة (هم) في قوله: چ ﭖ ﭗ ﭘ چ؛ ليزيد من حالة الإبعاد، فهو يتجاهلهم أشدَّ التجاهل متناسيًا إيَّاهم لأَنَّهم نسُوا حق الله – وحق رسوله بالسمع والطاعة.

فهذا الضمير يكشف جانبًا مهمًّا من جوانب التربية انتظم في سلسلة التأديب والتهذيب للنفوس المؤمنة. فضمير الغيبة أوحى بالبعد والعزلة في نسق عجيب. فهذا السياق ثريٌّ بالدلالات التي تكشف المعاني المتَّسقة بالمقام الموحي بالضيق والشِّدَّة، فضلًا عن معنى الضيق الذي يظهر في الفعل (ضاق) الذي

تكرر لغاية؛ إذ ليس الضيق في الأرض وحدها، بل هو ضيق في النفوس فقد أطبق عليهم من حولهم وفي دواخلهم، حتى وصل إلى أغلا شيءٍ وهو أنفسهم فهي تُريد أَنْ تبرح أجسامهم، حتى وصلوا من شدة الأمر إلى اليقين بأَنَّ المخرج من هذا المأزق هو بالرجوع إلى الله – فجاءهم في أَثنائه الفَرَج والتوبة.

ومن تصوير الإحساس بالزمن في استعمال حرف المهلة قول الله .: ﴿ ٱ ٱ ٱ ٻ ٻ ٻ ٻ پ پ پ پ ڀ ڀ ڀ ڀ ٺ ٺ ٺ ٺ ﴾ عبس: ٢٤ - ٣٢والمعهود في الاستعمال القرآني أَنْ يُعقِبَ نزول الماء بالإنبات وإخراج الثمرات واخضرار الأرض، باستعمال حرف التعقيب[17].

لكنَّه يتحدَّث هنا عن مرحلة شق الأرض بين نزول الماء والإنبات، فعطف بحرف المهلة على صبِّ الماء مع أَنَّ تخلل الماء لتربة الأرض يعقب نزوله، والسر فيه هو اختلاف الغرض؛ إذ المراد تطويع مسام الأرض الصلبة التي يصعب نفاذ الماء فيها، فضلًا عن جذور النباتات التي تضرب في أعماق الأرض كجذور النخل، فالتعبير بالصبِّ فيه شدَّة وقوة ودلالة على اندفاعه بعنف، فالصبُّ خاص بإراقة الماء من مكانٍ عالٍ، وهو أوقع في التدفق والنفاذ، والعطف بحرف المهلة لإطالة زمن الصبِّ، فجمع بين القوة والكثرة[18].

ومِمَّا يُسهِم في كون السياق يدل على المهلة والتراخي هو التعبير عن هذه القضية بسلسلة مؤكدات فقوله تعالى: ﴿ ۋ ۋ ۅ ۅ ﴾، جملة محاطة بأسوار تزيد من القوة التعبيرية للكلام، فالآية قبلها مبدوءة بحرف التوكيد(أَنَّ) وضمير التعظيم (نا) ، ومختتمة بالمصدر المؤكِّد لعامله (صبًّا)، والآية محل الاستشهاد مختومة بمصدر

مؤكِّد لعامله (شقًّا)، فهذه مجموعة قرائن تُعزز مفهوم التراخي والشدَّة في الموقف كشف عنها السياق.

المبحث الثالث: تباين دلالة حرفي العطف (الفاءُ وثُمَّ)

1. التناسب بين بنية حرف العطف ومعناه.

كان الواضع العربي الأول للألفاظ والأدوات في غاية الدقة والبراعة، حين رَصَدَ لكل منها دلالته الخاصة به وما يُشاركه فيها من الأدوات الأخرى في بابه، غير أَنَّها تحتاج إلى وقفة متأنية لكشف ذلك التناسب من وضع الألفاظ في إزاء تلك المعاني، وكان للعناية الإلهية في اختيار اللغة العربية لغة للقرآن الدور الأكبر في إبراز هذه الحقيقة، من خلال موافقة هذه الألفاظ للأحداث الواردة في النص القرآني، فهذه الألفاظ والأدوات تتلاءم والأغراض التي سِيقَ النص القرآني لها.

ومن الأمثلة التي توضِّح هذه الحقيقة اختيار بنية حرفي العطف (الفاء وثُمَّ) في إزاء دلالة كل منها، قال الخضري: " ومن مفاتن هذه اللغة الشاعرة، ودقة مواءمتها بين اللفظ والمعنى، أَنَّها اختارت (الفاء)، وهي حرف واحد لمعنى المسارعة، و(ثُمَّ) وهي ثلاثة أحرف للمهلة، ليواكب قصر الزمن في النطق بالفاء التوالي السريع للأحداث، ويتناغم طول النطق بحرف المهلة مع التراخي في وقوع الأحداث."[19].

والفاء من أدوات الربط التي تضمُّ الكلام وتجعل بعضه آخذًا بأعناق بعض، في سرعة متناهية فهي تارة تطوي لنا الأزمنة، وتارة تطوي الأحداث، في تناسق وتناسب رائعين دون إخلال بالأحداث والمجريات التي سيق الكلام لها، فهي

تعزز المعنى المراد في سياقي الحال والمقال، بل هي قرينة تكشف الغرض المنشود.

والفاء العاطفة لها دلالات في الكلام فهي تُفيد: الترتيب، والتعقيب، والسببية[20]. قال سيبويه(180هـ) فيها مميّزًا لها عن الواو: "والفاء، وهي تضم الشيء إلى الشيء كما فعلت الواو، غير أنها تجعل ذلك متسقا بعضه في إثر بعض؛ وذلك قولك: مررت بعمر فزيد فخالد، وسقط المطر بمكان كذا وكذا فمكان كذا وكذا. وإنما يقرو أحدهما بعد الآخر."[21].

قال المُرادي(749هـ) في معنى (الفاء) وفرقها عن (ثُمَّ): " ومعناها التعقيب. فإذا قلت: قام زيد فعمرو، دلت على أَنَّ قيام عمرو بعد زيد، بلا مهلة. فتُشارك (ثُمَّ) في إفادة الترتيب وتُفارقها في أَنَّها تُفيد الاتصال، و(ثُمَّ) تُفيد الانفصال"[22].

و(ثُمَّ) من أدوات الربط التي تُحكِم الألفاظ برفق ولين. وهي في أصل الوضع اللغوي ذات أصل واحد " هُوَ اجْتِمَاعٌ فِي لِينٍ. يُقَالُ ثَمَمْتُ الشَّيْءَ ثَمًّا، إِذَا جَمَعْتَهُ."[23]، وثَمَّ الشيء يَثِمه، وذلك إذا جمعه وأصلحه[24]، والثَّمُّ: شدُّ الشيء وإصلاحه وإحكامه[25].

قال المُرادي في معنى (ثُمَّ) بأَنَّها: " حرف عطف، يُشرك في الحكم، ويُفيد الترتيب بمهلة. فإذا قلت: قام زيد ثم عمرو، آذنت بأَنَّ الثاني بعد الأول بمهلة."[26].

ولهذا التناسب بين بنية حرف العطف ومعناه توجيه صوتي يُعلل سبب اختيار البنية القصيرة للمعنى السريع، والبنية الطويلة للمعنى المتراخي، فَـ (الفاء) تُمثِّل مقطعًا قصيرًا واحدًا، ونحن لا نستغرق فترة طويلة في نطقه بل نَخْطَفه خطفًا

بسرعة دون عناء، بخلاف حرف العطف (ثُمَّ) فهي تتكوَّن من مقطعين: أَحدهما متوسِّط مُقفَل، والثَّاني قصير، وعند نُطقِه نستغرِق زمنًا أَطول؛ وسببه أَنَّ الإِدغام النَّاتج من اجتماع ميمين السَّاكن أَوَّلهما؛ لذلك اختِيرَت (الفاء) ذات المقطع القصير في زمن نُطقِها، للدَّلالة على التَّعقيب، وهو يُوافِق سُرعة توالي الأَحداث، فيكون هناك تناغم بين سرعة النُّطق بالحرف مع سرعة وقوع الحَدَث، وجُعِلت(ثُمَّ) التي يطول زمن النُّطق بها دالَّة على التَّراخي، الذي يدُلُّ على البُعد بين زمني الحَدَثَين.

فضلًا عن أَنَّ (الفاء) حرف مهموس يسمح بتسرُّب النَّفَس، في حين أَنَّ النَّفَس يحتبس مع (ثُمَّ) المنتهية بحرفين مجهورين فهو يُوحِي بطول الانتظار وثِقَلِه على النَّفْسِ[27].

2. دلالة المغايرة بين حرفي العطف (الفاء وثُمَّ) في المواقع المتشابهة.

النظم القرآني مُعجِز في اختياره للألفاظ الموافقة للأغراض المرادة أشد التوافق، فضلًا عن استعمال التراكيب والأساليب بطريقة مشوقة. والشواهد على ذلك فوق العد والحصر في مُحكم التنزيل، فمن ذلك المتشابه الذي يُذهِل العقول بحسن سبكه وموافقته لأصول اللغة بدقة متناهية.

وقد عبر الدكتور فاضل السامرائي عن ذلك بطريقة جميلة في قوله: " في القرآن الكريم آيات وتعبيرات تتشابه مع تعبيرات أخرى ولا تختلف عنها إلَّا في مواطن ضئيلة كأنْ يكون الاختلاف في حرف أو كلمة. أو في نحو ذلك.

وإذا تأملتَ هذا التشابه والاختلاف وجدته أمرًا مقصودًا في كل جزئية من جزئياته قائمًا على أعلى درجات الفن والبلاغة والإعجاز. وكلما تأملت في ذلك ازددت عجبًا وانكشف لك سر مستور أو كنز مخبوء من كنوز هذا التعبير

العظيم."[28]. فربَّما كان هذا التغاير في الاستعمال مُسبَّبًا عن الغرض، وربَّما كان بسبب اختلاف السياق.

ولهذا التشابه والاختلاف صور واستعمالات كثيرة في الأسماء والأفعال والحروف والأدوات. فمن ذلك أَنَّ النص القرآني يُغاير بين حرفي العطف (الفاء وثُمَّ) في نصوص متشابهة ومن الشواهد عليه قول الله .: ﴿ثُمَّ﴾ • • • • ﴿ ﴾ الأنعام: ١١وقول الله .: ﴿ثُمَّ﴾ • • • • ﴿ ﴾ النمل: ٦٩ وقد حاول المفسرون أَنْ يجدوا لذلك تخريجًا لكنَّهم لم يُوفَّقوا إلى تعليل فيه مَقنَع، وطال فيه جدلهم، فمن ذلك قول الزمخشري(ت538هـ):" فإِنْ قلتَ: أيُّ فرق بين قوله: فَانْظُروا وبين قوله: ثُمَّ انْظُرُوا ؟، قلت: جعل النظر مسبَّبًا عن السير في قوله: فَانْظُروا فكأنه قِيل: سيروا لأجل النظر، ولا تسيروا سير الغافلين. وأَمَّا قوله: سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا فمعناه إباحة السير في الأرض للتجارة وغيرها من المنافع وإيجاب النظر في آثار الهالكين. ونبَّه على ذلك بِـ (ثُمَّ)، لتباعد ما بين الواجب والمباح."[29].

فالزمخشري لم يعلِّل الفرق بين مجيء السياق بِـ (الفاء) ومجيئه بِـ (ثُمَّ). لكنْ ثَمَّةَ تأويل آخر يتَّضِح من خلال النظر في السياق والغرض فهما، فاستعمل في سياق آية الأنعام حرف التراخي والمهلة (ثُمَّ)، بخلاف ما جاء في سورة النمل فقد جاء بالفاء التي تدل على التعقيب والتعجيل.

فالسياق في الآيتين الكريمتين مختلف؛ فسياق الآية في الأنعام يقتضي حرف العطف (ثُمَّ) وهو في النمل يقتضي (الفاء).

فآية الأنعام خُتِمَتْ بلفظ (المكذبين) وآية النمل خُتِمَتْ بلفظ (المجرمين) ولذلك أثر في استعمال كل أداة من أدوات العطف بما يناسبها من سوابق ولواحق،

فالمُكذِّب قد يُمنَح مهلة أطول من مهلة المُجرِم، فالمُجرِم ينبغي أَنْ يُؤخَذ بجرمه على وجه التعقيب والعجلة؛ لِئَلَّا يَعُمَّ فساده الأرض كلها؛ ولذا استعمل مع (المكذبين) حرف العطف (ثُمَّ) ومع (المجرمين) حرف (الفاء) فاقتضى أَنْ يختم كل آية بالحرف المناسب للمعنى المراد.

فضلًا عن أَنَّ التكذيب والسخرية في سورة النمل أكبر ممَّا في الأنعام، فآية النمل جاءت بعد قوله .: ٹاٱٲٱ • • • • • • • • • • • •

• • • • • • • • • • ئى ˝ النمل: ٦٧ - ٦٨ ثُمَّ جاء

بالآية : ٹاٱٲٱ ئي • ير • • ين • • • • • ˝ النمل: ٦٩ ثُمَّ صبَّر

الرسول بعد قوله .: ٹاٱٲٱ • • • بج بح بخ بم بى تج تح ˝ النمل:

٧٠. فاقتضى كل ذلك التعجيل بالفاء لا الإمهال[30]. فكان للسوابق واللواحق أثرها في كشف المراد من التغاير في الاستعمال.

الخاتمة ونتائج البحث

الحمد لله الذي أوجب على الخلق طاعته، وجعل خير الأعمال خواتيمها، والصلاة والسلام على النبي الأمين الذي ختم رسالات رب العالمين، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين. وهنا نُجمل النتائج التي توصل إليها البحث، بفضل الله وكرمه، وهي على النحو الآتي:

1. بيان أهمية المعنى في الخطاب من خلال أدوات الربط.
2. كشفَ البحث عن أهمية حروف المعاني ومنها أحرف العطف في الإسهام بربط الكلام وجعل بعضه متعلقًا ببعض.
3. أسهم حرف العطف (الفاء) بدور كبير في الإسراع بالأحداث في النص القرآني؛ وذلك بطيِّ الزمن وتعجيله فهو حرف يُفيد التعقيب، كما أدى

حرف العطف (ثُمَّ) دورًا كبيرًا في رسم أحداث وإطالتها لتعكس صراعًا نفسيًّا كان يُعانيه الأشخاص الذين تعلق بهم النص القرآني، أو تمطيط الأحداث؛ ليُظهِر لنا الإحساس بالزمن وطوله فهو يؤدي دوره كحرف يُفيد المهلة والتراخي.

4. أظهر البحث جانبًا من براعة اللغة في مراعاتها وضع الألفاظ بما يُناسب المعاني.

5. المتشابه اللفظي من الظواهر البارزة في التعبير القرآني، وقد أولاه العلماء عناية كبيرة، وكان لحروف العطف دور كبير في كشف أسراره والتعرف على أسباب تعاور الحروف في السياقات المتشابهة.

6. الإشارة إلى دور السِّياق اللغويّ في تحديد المعنى المراد من بين المعاني المتعددة داخل العبارة القرآنيَّة. من خلال التركيز والبحث في القرائن، ومراعاة السوابق واللواحق.

7. إبراز المكانة السامية للمقام في كشف حقيقة المعاني التي سِيقَ الكلام لها. فهو يُظهِر لنا أسرارًا في النظم المُعجز ما كانت لتتضح لولا النظر في المقام وملابسات

الهوامش

[1]. يُنظر: الجنى الداني في حروف المعاني 61.

[2]. يُنظر: الجنى الداني 62، ومغني اللبيب عن كتب الأعاريب 184.

[3]. من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم 63.

[4]. التحرير والتنوير 15/ 330.

[5]. يُنظر: من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم 64.

[6]. يُنظر: التحرير والتنوير 15/ 331.

[7]. يُنظر: الجنى الداني 62.

[8]. يُنظر: من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم 63.

[9]. التحرير والتنوير 17/ 317.

[10]. يُنظر: المصدر نفسه والصفحة نفسها.

[11]. أنوار التنزيل وأسرار التأويل 4/ 84.

[12]. يُنظر: من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم 174.

[13]. يُنظر: من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم 168.

[14]. معجم مقاييس اللغة 3/ 383.

[15]. يُنظر: التوجيه المعنوي للبنية الصرفية في القرآن الكريم 186.

[16]. يُنظر: من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم 169.

[17]. يُنظر: الآيات من سورة إبراهيم: 32، وسورة النحل: 65.

[18]. يُنظر: من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم 173.

[19]. يُنظر: مغني اللبيب 183.

[20]. من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم 157.

[21]. الكتاب 4/ 217.

[22]. الجنى الداني 61.

[23]. معجم مقاييس اللغة 1/ 369.

[24]. يُنظر: أساس البلاغة 115/1.

[25]. يُنظر: لسان العرب 12/ 79.

[26]. الجنى الداني 426.

[27]. يُنظر: من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم 7.

[28]. التعبير القرآني 173.

[29]. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل 2/ 8.

[30]. يُنظر: التعبير القرآني187.

ثبت المصادر والمراجع

- أساس البلاغة، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت 538هـ)، تحـ: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط1، 1419 هـ – 1998م.
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، المُسمَّى بِـ (تفسير البيضاويّ) ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازيُّ البيضاويُّ (ت 685هـ)، تحـ: محمد عبد الرحمن المرعشليُّ، دار إحياء التراث العربي، بيروت– لبنان، ط1، 1418هـ.
- التحرير والتنوير(تحرير المعنى السَّديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد) ، محمد الطَّاهر بن محمد بن محمد الطَّاهر بن عاشور التُّونسيُّ (ت1393هـ)، الدُّار التُّونسيَّة للنَّشر– تونس، 1984م.
- التعبير القرآني، د. فاضل صالح السامرائي، دار عمَّار، عمان– الأردن، ط4، 1427هـ– 2006م.

- الجنى الداني في حروف المعاني، الحسن بن قاسم المرادي(749هـ)، تحـ: د. فخر الدين قباوة، أ. محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ط1، 1413هـ– 1992م.
- الكتاب(كتاب سيبويه)، أَبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر(ت180هـ)، تحـ: عبدالسلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة – مصر، ط3، 1408هـ – 1988م.
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، جار الله أَبو القاسم محمود بن عمرو بن أَحمد الزمخشريُّ (ت538هـ)، دار الكتاب العربيّ– بيروت، ط 3، 1407هـ.
- لسان العرب، جمال الدين أَبو الفضل محمد بن مكرم بن عليّ بن منظور الأنصاريُّ الرويفعيُّ (ت711هـ)، دار صادر – بيروت، ط 3، 1414هـ.
- معجم مقاييس اللغة، أَبو الحسين أَحمد بن فارس بن زكريَّا القزوينيُّ الرازيُّ (ت395هـ)، تحـ: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، (د. ط) , 1399هـ– 1979م.
- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، الإمام أبي محمد عبد الله جمال الدين ابن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن هشام الأنصاري المصري(ت 761هـ)، تحـ: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا– بيروت، (د. ط)، 1411هـ– 1991م.
- من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم(الفاء وثُمَّ)، د. محمد الأَمين الخضريُّ، مكتبة وهبة، القاهرة – مصر، ط2، 1427هـ – 2007م.

البحوث والدوريات:

- التوجيـه المعنـوي للبنيـة الصـرفية فـي القرآن الكـريم، د. لقمـان مصـطفى سعيد، مجلة التربية والعلم – المجلد 17، العدد 2، لسنة 2010

ملخص البحث

يتناول البحث دلالة أحرف العطف من خلال النظر في السياق وملابسات الموقف، والنظر في معاني هذه الحروف التي تنعكس بإشعاعاتها على ذلك السياق الذي وردت فيه، لتكشف عن أحداث ومجريات تُسهم بشكل واضح في تعلق الكلام ببعضه بعضًا، وهذا التعلق هو الذي يخدم بنية النص، ويُجلي لنا معاني النحو.

ولا شك في أَنَّ استعمال النظم القرآني لحرف دون آخر وإثاره لأداة أو تركيب دون غيره له مغزاه ودلالته الخاصة ولولاه لما استقام هذا النظم، وتلك سمة واضحة في القرآن الكريم.

وكان سعينا في هذا العمل التنقيب عن ظلال المعاني التي اختبأت وراء هذه الحروف التي عالجت قضايا مهمة في الأحداث التي عالجها النص القرآني.

وأخيرًا فقد تراءَتْ لنا أهمية العطف فهو لا يُسهِم بربط الألفاظ فحسب، بل إنَّ له الدور الأكبر في إيصال الكلام وتعانقه من خلال حروفه التي لا تكتفي بربط الكلمات، بل هي تتحكم بالزمن والإحساس به، فهي بين أَنْ تطويَ أحداثًا في النصوص؛ لتختصر سنينًا في آية واحدة، وبين أَنْ تمدَّ الزمن وتطيله؛ لتكشف عن معاناة وهاجس بشري يعتمل في الصدور.